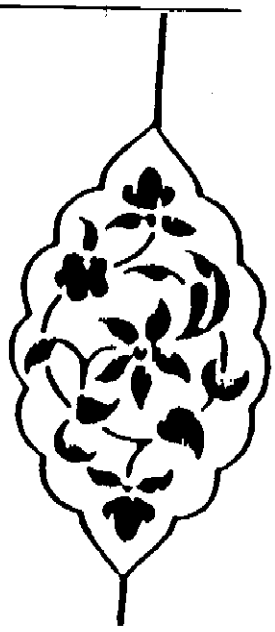

جاك بيرك
و
« قراءة القرآن »

الأستاذ جورج دورليان (*)

لم ينفك الفكر العالمي والأوروبي منه خاصة من الاهتمام منذ قرون بتراث الشرق وحضاراته وفي الشرق القديم والمتعدد هذا ، يشكل التراث العربي – الإسلامي البؤرة الأكثر إثارة لفكر غربي سعى ولا يزال لفهم تجلياته المميزة والفريدة من خلال أطر ومقاييس وأنساق خاصة بالغرب وخارجة عن تلك التي عرفها الفكر العربي في تاريخه ومناهجه ورؤياه . وليس غريباً في هذا السياق أن يحتل الإسلام وكتابه القرآن مرتكز هذا السعي ومنطلقه . ولئن رفض بعض العرب المسلمين هذه المحاولات « الاستشراقية » واعتبرها تأويلاً وتحريفاً وحتى إساءة لفحوى النص العربي الديني بامتياز ، إلا أن هذا الرفض لم يلغ أهمية المساهمة الغربية عامة التي وظفت في هذا السبيل جل ما أنتج في الغرب من منهجيات وأنماط معرفية محدثة ، علماً بأن العديد من الأبحاث والدراسات الاستشراقية لا تتوسل الإساءة أو التسفيه بل سبل معرفة الآخر من مواقع لا بد أن تكون تلك التي يقف عليها « الأنا » الغربي المتخلف روحاً وتجربة ، وخاصة عندما لا يكون هذا « الآخر » ـ الذي هو نحن ـ قد أنجز بعد وسائل معرفية متطورة تمكنه من إدراك ذاته من مواقع المعاصرة لا من تلك التي ترجعه إلى ماض سحيق .

(*) أستاذ جامعي لبناني .

ضمن هذا المنظور الإيجابي لعلاقات الشعوب وانفتاحها على تجارب بعضها البعض ، نفهم عمل جاك بيرك الأخير في ترجمته الجديدة لمعاني القرآن وما تبعه من إعادة قراءة له ، فلا نرى ضرورة للتعريف به وبأعماله وبالجهد الكبير الذي بذله طوال عمره لمعرفة العالم العربي ـ الإسلامي من مغربه إلى مشرقه ، فهو إلى جانب بروكلمان وبروفنسال ورودنسون وكاهين وماسينيون وميغيل الخ .. من الأسماء النادرة التي لمعت في أفق الإستشراق الجدي وأغنت معارفنا رغم اختلاف اللغة والمناهج عن لغتنا ومناهجنا ، وعمقت فهمنا لذاتنا ولتراثنا .

فلقد أراد جاك بيرك تتويجاً لجهوده الاقتراب من أم الكتب العربية ، القرآن في محاولة لترجمتها . وهي ليست خاتمة سلسلة الترجمات التي عرفها القرآن ولا أولها. ولكن مع كل ترجمة جديدة يبرز إدراك جديد لما يكتنزه النص من خصوصيات ودقائق تفصيلية ومرام دلالية تكون قد غابت في الترجمات السابقة أو أسيء فهمها أو لم تلاق المرادف والتعبير الدقيقين .. فتنير وجهاً بقي في الظلال .

إلا أن ما يهمنا اليوم هو أن نقدم للكتاب الذي صدر له مؤخراً والذي يضم سلسلة المحاضرات التي ألقاها في معهد العالم العربي في باريس حول الكتاب المؤسس للإسلام ، أهمية الكتاب أنه يأتي بعد « محاولة ترجمة القرآن » أي بعد مؤالفة مديدة للنص وسياقه الفكري أمضى العالم في سبيلها « ما يقارب الست عشرة سنة من التحضير والاهتمام شبه الحصري » (ص٩) وهو يتألف من أربعة فصول وخاتمة : ١ ـ مقاربات البنية ، ٢ ـ الزمن في القرآن ، ٣ ـ الشريعة في القرآن ، ٤ ـ القرآن واللغة العربية . فيما يلي ترجمة الفصل الرابع وقد اخترناه لما يتضمنه من معرفة واسعة وعميقة يتمتع بها المؤلف ومن ملكة للمنهج المقارن في أفضل تجلياته واضعاً النص القرآني على مفترق حضارات العالم وفكره . كما ويفصح كاتب النص عن الصعوبات التي عاناها ـ إضافة إلى تلك التي تخص ضبط المعنى والتعبير عن دقائقه ـ في مسعاه « لجعل النص الفرنسي يتلى بصوت عال دون ادعاء منافسة الأصل » (ص١١٨) . فمن التساؤل عن الغاية من نزول القرآن باللغة العربية إلى البحث في لغة القرآن نفسها وإعجازها الذي شغل الفقهاء والنحاة العرب ، يتبين لنا كيف يجوز لإنسان غير مسلم ومنتم لفضاء ثقافي ـ حضاري آخر أن يتحسس جمال هذا النص وكماله وقيمته الكونية .

أما الفصول الأخرى فلا تقل أهمية إذ تكشف عن خصوصيات النظرة لنص بمقام النص القرآني ، لتبرهن أن بإمكان المرء الدنو مجدداً من النصوص التاريخية الكبيرة التي فهمتها الأجيال السابقة على طريقتها ، وذلك بالتسلح بالمكتسبات المنهجية والمعرفية الجديدة وبحساسية مختلفة تماماً . كما وتكشف هذه النصوص أنه بالإمكان أيضاً الاقتراب من النص الديني لا من موقع الإيمان فحسب بل من موقع البحث والنقد الموضوعيين دون أن يكون هذا الموقع مناقضاً للأول أو لاغياً له بل مكملاً للتوق نفسه الذي يدفع بالولوج إلى صميمه.أما المسافة ـ الزمنية والإيمانية ـ التي يأسف جاك بيرك بأنها تفصله عن النص فيأمل بأن تساهم إيجاباً إذ أن «العين لترى بحاجة لأن تبتعد قليلاً » (ص١٨) .

ففي الفصل الأول الذي يحمل عنوان « مقاربات البنية » يدعو جاك بيرك إلى تخطي منطق الصنافة الغربية والتخلص من إرث التاريخانية اللذين طبعا مجمل أعمال المستشرقين ، للشروع في بحث يكشف عن النص كمعطى حي . فما اعتبره العقل الغربي « تفككاً مخيباً » (ص١٩) ليس إلا ظاهراً يخفي في صميمه ترابطاً ووحدة داخليين . وهذا التماسك الداخلي لا يمكن تناوله إلا بالتخلي عن مبدأ إعادة تعاقب الآيات زمنياً في التنزيل لضبط تطور مزعوم لمفهوم الله ، وبالاقتراب أكثر من النص كما جمع . وإذا بالتباين بين السور إن على مستوى الموضوعات أو على مستوى عدد الآيات التي تكونها والتكرار والتناقض اللذين تتصف بهما ، يتراجع لصالح قراءة متزامنة (Synchronique) لا متعاقبة (Syntamatique) تعطي لهذا الصوت المعلن عن الحقيقة (Kerygme) والآتي الينا من ألف وأربعمائة سنة، بنية تشبه تلك الأحجام المتعددة السطوح والصفحات (Polyeder) عبر أنماط خطابية مختلفة تتوزع على محورين أساسيين : محور المعطيات المطلقة ومحور الظروف التاريخية المحيطة بلحظة التنزيل . بهكذا قراءة يأمل بيرك بشيء من التأكيد لا يدعي الكمال قط إعادة تركيب الصنافة الخاصة بالنص القرآني وفتح آفاق لما يمكن أن تقوم به أبحاث لا حقة تستلهم مناهج العلوم الحديثة من لسانيات وسيمياء بهدف التعمق في مظاهر « المعجزة » التي يشكلها القرآن .

أما في الفصل الثاني المتمحور حول « الزمن في القرآن » فيقيم بيرك مقارنة بين مفهوم الغرب للزمن وتحولاته منذ أطلق هيغيل في كتابه « فينومينولوجيا

الروح » عبارته الشهيرة « الحقيقة مصير ذاتها » (ص ٤٩) ومفهوم الزمن كما جاء في القرآن ليقول أن الكتاب المؤسس للإسلام قد أفصح عن تطور حديث للزمن يربطه بفكرة التواصل (Communication) التي أدخلتها اللسانيات فألغت تلك التي ربطت الحقيقة بالتقدم والتطور التكنولوجي ثم عادت وفصلتها عنه حتى راح البعض يعتبر أن الإنسانية واحدة ومتعددة في آن وقادرة على حمل نماذج مختلفة . فالقرآن حسب بيرك يحدد نفسه كتواصل عمودي بين الله والانسان . تواصل مطلق أو تواصل المطلق . هنا تبرز العلاقة بين المطلق والنسبي ، بين اللازمني والزمني في المطلق اللازمني ، أو كيف يهاجر المطلق إلى مسافة الزمن وحدوده ؟ فتلك أسئلة يحاول بيرك الإجابة عليها في هذا الفصل بقراءة بنية النص القرآني . فرغم أن كلمة « زمان » لا ترد في النص ، إلا أن الإشارة إليها تتم عبر كلمات مجانسة مثل « الدهر » ،« الحين » ،« العصر »، « المصير »، «الطور»، « الأجل » الخ ...

ويعتقد المؤلف بأن معطيات ظرفية أو ذات علاقة بحياة الرسول أو ظروف التنزيل تلتقي وتتداخل وأخرى ذات صلة بالقيم المطلقة كالآخرة وفلسفة التاريخ والبراهين الطبيعية على وجود الله . فمن خلال قراءة لسورة « الكهف » التي تحكي قصة أهل الكهف السبعة وقصة موسى وقصة ذي القرنين (الاسكندر) ، يفترض بيرك أن للزمن في القرآن أوجهاً ثلاثة : الزمن المعاش زمن تجارب النبي ومحنه ، الزمن المرجعي (إعادة صياغة الماضي التاريخي منه والديني) والزمن المتوقع (وصف الجنة والآخرة) . وإذا ببنية النص القرآني تتخذ شكل « نجمية » يخترقها سهم منطلق من لحظة خلق الكون إلى الآخرة مروراً بالتاريخ المعاش والمرجعي في وحدة تذكرنا بمقولة القديس اغسطينس عن الزمن الموحد في حاضر ثلاثي الأوجه : حاضر الماضي وحاضر الحاضر وحاضر المستقبل . وينهي مداخلته حول الزمن بالتطرق إلى مسألتي خلق القرآن ونظرية النسخ والإلغاء ليقول بأن الشريعة الإسلامية مبنية على تداخل بين الزمن والمطلق وبالتالي بين الأزلي والزائل.

يبدو أن التوجهات الحالية في العديد من الدول العربية ـ الإسلامية حول تطبيق دقيق للشريعة الإسلامية يتخطى حدود الأحوال الشخصية (زواج ، إرث، الخ . .) إلى مجمل الحياة المعاصرة بغية استعادة السيطرة على الدولة والمجتمع ، هي

التي دفعت بجاك بيرك إلى الكلام على « الشريعة في الإسلام » وكما في الفصول السابقة ، يبدأ بيرك باستطراد يلخص فيه واقع الفكر الغربي في مواجهة إشكالية القانون الوضعي والسماوي . فمن هيوم الى ستيفن تولين وروبيرت هاير المعاصرين مروراً بهانز كلسن (١٨٨٠-١٩٧٣) كان الهم الأساسي هو البحث عن قانون مركزي ـ أساسي تنتج عنه قوانين أخرى . فحتى في الأنظمة التي تدعي الاستغناء عن القوانين السماوية المنزلة فالنقاش لا يزال دائراً حول أصول الموجبات وكيفية الأخذ بالقاعدة الأولية .

فبعد هذا المدخل العام يبدأ بيرك قراءة الآلية للألفاظ التي تكون الحقل الدلالي لـ« الشريعة » فيلاحظ أنها كثيرة : شريعة ، وصى ، حد ، حدود ، محادة ، موعظة ، وعظ ، سن ، عرف ، معروف ، حكم ، حكمة ، حكم الأحكام ... ويتساءل ما إذا كان الإنسان المسلم مقيداً من كل صوب . ورغم أن الكثيرين اعتبروه كذلك إلا أنه لا يوافقهم الرأي لأن عدد القوانين في القرآن لا يتخطى الخمسماية قانون فيما هناك ٦١٣ قانوناً في العهد القديم و٢٤١٤ في القانون الروماني . فيستنتج أن القرآن يترك أكثر من غيره مجالاً رحباً للبادرة التشريعية الحرة للمؤمن أو على الأقل للفقيه . ولتأكيد وجهة نظره حول حرية المسلم في التشريع وسن القوانين يرى بيرك أن آية واحدة فقط تخص القانون المدني (البقرة ٢٧٥) وآية واحدة القوانين الاجرائية أو أصول المحاكمات (البقرة ٢٨٢) ، أما بالنسبة لقانون العقوبات فهناك آيات عديدة إلا أنها كلها تخضع لشرط مقيد هو توبة المتهم ، كما وتدعو الى تسامح القاضي . فسورة (النور) القاسية جداً تجاه الزنى تعود لأربع مرات متتالية (الآيات ١٠و١٤و٢٠و٢١) الى التعبير التالي ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم** ﴾ ما يعني أن الهاجس العقابي غريب عن الكتاب المؤسس للاسلام والمتحرر كلياً عن شراسة وبغض مزعومين تجاه الانسان .

فالعدد القليل من القوانين والقيود الموضوعة في تطبيق العقاب والتركيز المتكرر على رحمة الله إن دلت على شيء فهي تدل على دعوة طبيعية لمبادرة وحرية من سيطبق هذه القوانين . فليس في القرآن قانون قمعي جامد وثابت بل على عكس ذلك هناك إشارات للتجديد والاجتهاد . إلا أن باب الاجتهاد قد أغلق مما ساهم

في جمود ليس من روح القرآن ولا من الحديث ولا من السنة . فالقرآن والحديث يدعوان دائماً الى العقل والتفكير .

فبعد المقارنات المختلفة لبنية النص القرآني ، لزمنه وللغته ، ينهي بيرك كلامه باعتبار المساهمة « المتواضعة » التي قدمها هي في خدمة إسلام متطور ، إسلام دائم . وذلك لأن « الرسالة القرآنية » بذاتها انفتاح على زمن الكون ، انفتاح يغرف أصالته في الماوراء . وكون الرسالة القرآنية تصلح لكل زمان ومكان ولكل الشعوب قاطبة فهي بالتالي تدين الجمود في التفسير والتطبيق . ونحن من جانبنا لا يسعنا إلا أن نثني على أبحاث في التراث العربي ـ الإسلامي ـ الذي هو تراثنا الحضاري جميعاً بغض النظر عن انتمائنا الإيماني إليه ـ تضعه في موقع المحاور مع الثقافات الأخرى دون تحريف لخصوصيته وأصالته . فحوار الحضارات والثقافات والأديان من موقع الحداثة والمعاصرة هو وحده الكفيل في بناء عالم يسوده السلم والإخاء البشري . والإسلام كغيره من الديانات يدعو إليه .. فلنقرأه من هذا المنطلق .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

جريدة السفير ١٩٩٤/٣/٢٣

(إن القرآن الكريم يأتي بالمعارف التي تتمشى مع البرهان الصحيح ويسير مع العقل الصحيح فهل يمكن لبشر أمي نشأ في محيط جاهل أن يأتي بمثل هذه المعارف العالية ؟) .

السيد بو القاسم الخوئي قدس سره